المحاضرة الرابعة:الاستشراق والشعر الجاهلي

من أهم الآراء التي ارتبطت بالمستشرقين حول الشعر الجاهلي، هي قضية "الانتحال"، وهي قديمة حديثة، تناولها النقاد القدامي، بيد أن المسلك الذي تم تناولها وفق المنظور الاستشراقي فهو يختلف عن مسلك النقد القديم .

الانتحال عند المستشرقين :

لقد حظي الأدب الجاهلي عامة و الشعر الجاهلي خاصة، بعناية الدارسين من عرب و مستشرقين، فدرس الشعر من شتى جوانبه ، فكان الشعر الجاهلي أوّل من تناله سهام الحاقدين من عرب وبالخصوص من المستشرقين ، بغية تحقيق غاية تكمن في النيل من اللغة العربية و من ورائها القرآن الكريم و الدين الإسلامي الحنيف ، ذلك أنّ "الشعر الجاهلي ليس فنا من الفنون الأدبية فحسب ، بل هو زاد العربية و مادتها ، عليه قامت علوم اللغة و به فسّر القرآن الكريم ، وبفضله قوِّم اللسان العربي"[1] ، إذ تستوقفنا الكثير من الكتب التي عمّد أصحابها إلى الأدب العربي دراسة و تأريخا ، إضافة إلى تضمينهم في ثناها فصولا ومباحث حول الشعر الجاهلي وأهم شعرائه و كذا قضاياه ، ومن تلك الكتب نذكر:

-"تاريخ الأدب العربي، بأجزائه الخمسة "[2] ، للمستشرق الألماني كارل بروكلمان Carl Brokelmann .

[1]. يحيى وهيب الجبوري ، المستشرقون و الشعر الجاهلي بين الشك و التوثيق ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1997م ص65.

[2]. عبد الرحمان بدّوي ، موسوعة المستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط3 ، تموز . يوليو 1993م ، ص 98.

– "تاريخ الأدب منذ البداية حتى نهاية القرن الخامس عشر" ، للمستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير Regis Blachere ت 1973م ، الذي " توفي دون أن يتمّه ، وقد ظهر منه ثلاثة أجزاء تنتهي عند 120هـ ، 427م"[1].

– "تاريخ اللغة و الآداب العربية " ، للمستشرق الفرنسي شارل بلّا Charles Pellat "الذي عنى خصوصا بالجاحظ "[2] ، فكرَّس له شهادتي دكتوراه و الكبرى منها عنوانها : الوسط العلمي في البصرة و تنشئة الجاحظ .

– " الأدب العربي " ، للمستشرق البريطاني المولود بالإسكندرية ، هاملتون جب Hamilton Alexander Roskeen Gibb ، "وهو كتيّب قصد به إلى القراء الإنجليز. وقد أعاد طبعه منقحا في 1963م"[3] ، حيث قسّم فيه جب العصور تقسيما جديدا ، فيصف عصر ما قبل الإسلام بالعصر البطولي ، أما عصر صدر الإسلام فيطلق عليه عصر التوسع بحيث يعتبره امتدادا للعصر البطولي .

تباينت آراء المستشرقين حول قضية الانتحال في الشعر الجاهلي ، بين الإنصاف و الاعتدال ، و بين المغالاة و الإجحاف ، فقد قامت دراسات كثيرة وحققت عديد النصوص وأشبعت بالموضوعات و الآراء ، كلّ يريد إثبات وجهة نظره حولها .

ومن أوّل الدراسات التي ظهرت و أثارت الانتحال والشك في الشعر الجاهلي بحث نولدكه Theodor Noldeke[4] سنة 1864م بعنوان ، في سبيل فهم الشعر الجاهلي ، فقد تطرّق نولدكه فيه إلى الكثير من الموضوعات ، التي تتناول الشعر الجاهلي من تكوُّنه إلى طبيعته فبدايته وصوله إلى العصر العباسي و حفظه ، كما لاحظ نولدكه أيضا في بحثه هذا أن بعض الرواة في العصر الأموي ، قد سلكوا

---

1. المرجع نفسه ، ص 127 .
2. عبد الرحمان بدّوي ، موسوعة المستشرقين ، ص 117.
3. المرجع نفسه ، ص 174 .
4. الدكتور عبد الرحمن بدوي ، دراسات حول صحة الشعر الجاهلي ، دار العلم للملايين ، ط1 ، نوفمبر 1979م ، ص ص307، 308.

مسلكا يتّسم بالاستهتار وعدم المسؤولية ومثّل لهؤلاء بحماد الراوية ، كما أنّه نفى أيضا صحة الشعر الجاهلي في جلِّ قصائده بحجة أن لا ذِكرَ للدين الجاهلي فيه ، ذلك أن آلهة العرب القديمة قد ذكرت في أبيات قليلة جدا ، ليُنهِي نولدكه بحثه عن الشعر الجاهلي مبيّنا قيمته و قوته و روعته و بُعْدَ أثره ، قائلا : "ومهما تعرضت له روايته من اضطراب ، فإنه تفوح من هذه الشذرات روح منعشة تدل على أن قوة الشعر البدوي و جماله لم يضيعا "[1] ، وفي 1872م يصدر المستشرق الألماني الآخر ألقرت قلهلم Wilhelm Ahlward ت 1919م ، دراسة عنونها ، ملاحظات على صحة الشعر الجاهلي ، ولم يختلف فيها كثيرا عما ذهب إليه نولدكه في دراسته ، إلا أنه قسم القصائد الجاهلية إلى ثلاث مجموعات : فبعضها صحيح والآخر غير صحيح و الثالث مشكوك فيه[2].

أما المستشرق الإنجليزي رينولد نيكلسون R. A Nicholson ت 1945م ، فقد عمدّ في تناوله لقضية الشعر المنحول على الرواية الشفوية باعتبارها الأداة الوحيدة لحفظ الأشعار آن ذاك ، إذ أضفى عليها صبغة سياسية ، ويرى أيضا أن أثر الدين في حياة الجاهليين كان ضئيلا ، ولا ينكر وجود بعض الديانات السماوية كاليهودية و النصرانية في بلاد العرب .

ليكمل في الأخير المستشرق يهودي الدين إنجليزي المنبت ، دافيد صموئيل مرجليوث D. S Margoliouthت 1940م ، عِقْدَ المستشرقين الذين أثاروا عاصفة ما بعدها عاصفة حول صحة الشعر الجاهلي ، فمرجليوث من الذين نالوا القدر الوافر من الآداب الكلاسيكية وعُرّف عنه عنايته و إتقانه للغات السامية ، فقبل أن ينشر في سنة 1925م كتابه الموسوم ، أصول الشعر العربي ، الذي يعدّ محصلة ما توّصل إليه في كتاباته السابقة التي تعود إلى حوالي الربع قرن من الزمن ، حيث يرجح أن الأفكار التي راودت ذهنه حول قضية الانتحال تعود إلى زمن غير قريب ، ولعل أهم ما يؤكد هذا كتابه الذي أصدره عن

---

[1]. الدكتور يحيى وهيب الجبوري ، المستشرقون و الشعر الجاهلي بين الشك و التوثيق ، ص20 .

[2]. المرجع نفسه ، ص34 .

محمد صلى الله عليه و سلم و ظهور الإسلام ، وعنونه ، Mohammad and the Rise of Islam ، حيث يلفت فيه الأنظار إلى الشبه بين لغة القرآن و الشعر الجاهلي ، إضافة إلى العديد من المقالات خاصة تلك التي نشرت في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية كالمقالة التي كتبها سنة 1911م و التي وسمها بـ ، أصل الشعر العربي ، وقد بنى مرجليوث حججه في إنكار الشعر الجاهلي على الموضوعات التالية[1] :

. العلاقة بين النقوش و الأشعار.

. العلاقة بين القرآن و النقوش.

. الثقة في الرواة .

. مضمون الشعر الجاهلي .

كما أن مرجليوث سار أيضا على نهج نولدكه و ألقرت وغيره المستشرقين ، في نفيه لصحة الشعر الجاهلي ، بحجة أنه لا يوجد ذكر للدين الجاهلي فيه ، وأن ما ذكر فيه من دين الجاهليين الذي غلّب عليه الطابع الوثني ، إنما هو موضوع على ألسن الرواة بعد الإسلام كحماد الراوية وخلَّف الأحمر و غيرهم .

كما سبق ذكره من قبل ، فإن المستشرقين قد تخندقوا في طائفتين ، الأولى عُرِّف عنها التمسك بالآراء و الأحكام القائمة على الأيديولوجيات و الأحكام المسبقة ، بينما على النقيض من ذلك ، تميّزت الطائفة الثانية بأنها أحسنت إلى الشعر الجاهلي ، فترجم أصحابها الدواوين الشعرية و قدموا دراسات متعمقة فيه بُنيَّت في الأساس على الأمانة العلمية بشكل دقيق و وافٍ ، ومن أبرز هؤلاء المستشرقين ، نذكر :

سير تشارلس جيمس لايل Sir Charles J. Lyall ت 1920م ، حيث أكد لايل على صحة الشعر الجاهلي ، و أنه ليس من قَبِيل الصدفة أن يسوق لنا حجته على ذلك بقوله " فقد استمر أثر

[1]. الدكتور يحيى وهيب الجبوري ، المستشرقون و الشعر الجاهلي بين الشك و التوثيق ، ص 54 . 55 .

شعراء القرن الأول المشهورين : الفرزدق و الأخطل و ذو الرمة على تقاليد الشعراء في العصر الجاهلي ، فبالإضافة إلى إشارتهم الشخصية استعملوا تراثهم الشعري مرارا و تكرارا ، متناولين نفس الموضوعات بنفس الطرق ، محسنين و محورين ومستعيرين ، و لكن ما زالوا متقيدين بنفس التقاليد"[1].

آربري Arthr John Arberry ت 1969م ، حيث ردَّ هذا الأخير على الزَيف الذي نسج خيوطه مرجليوث ، و يستغرب من رجلٍ له صيت شائع و كلمة مسموعة في الساحة العلمية آن ذاك ، أن يقع في مثل ما وقع فيه من أخطاء جسيمة بسبب آرائه التي بثَّها في مؤلفاته ، إذ يقول في خاتمة كتابه ، المعلقات السبع ، " إن السفسطة . و أخشى أن أقول : الغشّ . في بعض الأدلة التي ساقها الأستاذ (مرجليوث) ، أمر بيّن جدا ، ولا تليق البتة برجل كان ، و لا ريب من أعظم أئمة العلم في عصره "[2] .

أرش برونلش Erich Braunlich ت 1945م ، حيث ردَّ بعد عام على المقالة التي نشرها مرجليوث ، مفنَّدًا ما جاء فيها جملة و تفصيلا في كتابه المعنون بـ ، " عن الشعر الجاهلي ، الآداب الشرقية 1927م ، وترجمها عبد الرحمن بدوي باسم ، في مسألة صحة الشعر الجاهلي "[3] ، حيث يقول أرش : " ولو كانت كلُّ الأشعار الجاهلية و ربما الأشعار السابقة على العصر الأموي منحولة فإنه لن يكون مفهوما لماذا فضل علماء اللغة الذين ازدهروا في هذا العصر ، لاتخاذ اللغة أداة مساعدة لتفسير القرآن ، يقول : لماذا فضلوا أخذ شواهدهم من الشعر الجاهلي على أخذها من الشعر الأموي ، لأنه أقرب إلى القرآن من لفة الشعر الأموي "[4] ، حيث يرُّد على حجج المستشرقين بناءا على خبرته و دراسته للأدب العربي .

---

1. المرجع نفسه، ص 42 .
2. مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر، دمشق. سورية ، ط4 ، 1987م ، ص 22 .
3. الدكتور يحيى وهيب الجبوري ، المستشرقون و الشعر الجاهلي بين الشك و التوثيق ، ص 54 .
4. المرجع نفسه ، ص 63 .